

## اللغة العربية وآدابها

الظعائن في الشعر العربي  
\*\* محمد نوفل

## الظعائن في الشعر العربي

محمد نوفل \*

### المقدمة

تمثل الحياة الاجتماعية عند العرب نبعاً ثراً للشعر العربي كمّاً وكيفاً، نظراً لأهمية هذه الحياة في نفوسهم. فهي وعاء عاداتهم وتقاليدهم ومصدر ارتباطهم ببعضهم في جزيرتهم، وبغيرهم خارج جزيرتهم وفي أطرافها. ولم تبخل بيئتهم الصحراوية على شعرائهم بشيء مما فيها، بل كانت مصدر وحي والهام في إذكاء روح الشعر العربي على مرّ عصور الأدب والتاريخ، لا سيما في عصور الأدب الأولى ممّا أوجد لنا نتاجاً أدبياً واسعاً من القول المنظوم والمنثور، فغدت صحراء العرب مسرحاً للشعراء يمرحون فيها كما تمرح أصناف حيوانات الصحراء وحشيتها وأليفها، عظيمها وصغيرها، فأخلصوا لهذه البيئة أيّما إخلاص، وتبارواً بذكر كل ما عليها مما يخطر على بالهم، مما أوجد لنا ذخيرة عظيمة من الشعر العربي. وكان للمرأة النصيب الوافر من كل ذلك، فكانت هدفاً لتشبيهاها بكل جميل ورائق من مخلوقات الله ذات الجمال والكمال والنورانية، وبقي الحال كذلك حتى يومنا هذا وإن كان الأمر قد تعدّى هدفه السامي إلى الأمور الرخيصة المكشوفة اعجاباً من الشاعر وقلة صبر منه وضعف حيلة. فوصفها قائمة وقاعدة ومقيمة وظاعنة، وسمينة ونحيفة، وحرّة وأمة، وصغيرة وكبيرة، يلتبس في ذلك كله أسباب الجمال والكمال والدلال في سبيل غرضه المنشود وغايته المعلومة، حتى عدّت المرأة عاملاً مهماً في بعث الشعر العربي الذي تحوّل بعضه إلى غناء وحداء وترانيم، مما حفظ اللغة وساعد على ابتكار المعاني والألفاظ بأثواب وأنماط مختلفة.

وفي هذه البحث الذي اختص بالمرأة الظاعنة، دليل واضح على هذا العرض الذي نحن بصدد، حيث دار في جملة حول الظعائن في الشعر العربي بدءاً بالفترة الجاهلية وانتهاء إلى خطرات شعرية من هذا النوع في الزمن المعاصر.

وبينت بالصورة الشعرية موقف المحبين عند الفراق، وكيف تفننوا في

\* د. محمد نوفل: أستاذ مشارك في اللغة العربية بجامعة النجاح الوطنية.

طريقة مخاطبة الظعن والأخلاء لاسعافهم في تخفيف ما هم فيه من حزن ووجد ولوعة لفراق من يحبون، لا سيما وقد غبش الدمع عيونهم فعزت عندهم الرؤيا الواضحة في حسن استجلاء أشخاص الأحباب وجمالهم.

وقد حملت صفحات هذا البحث وصفاً دقيقاً لساعة الرحيل وحال الظاعنين والمحبين، وما واكب ذلك من بكاء وحسرة، حيث عبّر الشعراء عن كل ذلك بشعر يفيض حزناً ولوعة، وينمّ عن حب وهيام.

كما ذكرت أوقات الرحيل، حيث اختلفت عند الشعراء اختلافها عند الظاعنين، فمنهم من ذكرها ظهراً أو ضحى أو سحراً أو ليلاً أو عند الأصيل أو في الغبش.

وفي البحث كان تشبيه الاظلعان بالأشجار على اختلاف أنواعها، فذكر الشعراء الدوم والاثل والنخيل والجبار والميس والسيال، كما حدد الشعراء النخل بموطنه، فذكروا نخل يبرين ونخل بيسان ونخل هجر ونخل القرى، ونخل ملهم وقران ومحلّم ثم ذكروا الاظلعان والهواج وتمايلها بفعل السراب، فأصابوا في ذلك تماماً وخلقوا صورة للبصيرة تكاد تكون حقيقة لدقتها وصدق العاطفة في ذلك عندهم.

أمل ان اكون قد غطيت أخبار موجة اجتماعية من ثمار الشعر العربي طرقها الشعراء وتباروا فيها، فغدت رافداً من روافد الأدب العربي وأثراً بارزاً من آثار الشعر العربي الذي عده عمر بن الخطاب رضي الله عنه ديوان العرب يوم لم يكن لهم ديوان غيره.

## معنى الظعائن :

الظعائن جمع ظعينة، من مادة الفعل (ظَعَنَ) ومعناها: ذهب وسار، وأظعنه بمعنى سيره، ومنها الألفاظ، ظَعَنَ يَظْعُنُ ظَعْنًا وَظَعْنًا وَظَعُونًا، وكلها تعني ذهبَ وسار، أو الذهاب والسير، وقد قرئ قوله تعالى: "يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَظَعْنِكُمْ".

وسميت المرأة ظعينة لأنها تظعن مع زوجها وتقيم باقامته كالجلسة. كما أن الظعينة تعني الجمل يُظْعَن عليه، أو الهودج تكون فيه المرأة، أو هو الهودج كانت فيه أو لم تكن، وتسمى الإبل أيضاً ظَعْنًا عندما تكون عليها الهواج.

والظَّعن: سير البادية لُنْجعة أو حضور ماء، أو طلب مَرَبِع أو تحول من ماء إلى ماء، أو من بلد إلى بلد. (١) ويقال لكل شاخص لسفر في حج أو غزو أو مسير من مدينة إلى أخرى ظاعن، وهو ضد الخافض. (٢) وجمع الظعينة: ظعائن وظُعن وُظُعن (وأظعان وُظُعنات) في جمع الجمع، قال بشر بن أبي خازم: (٣)

لهم ظُعناتٌ يهتدين برايةٍ كما يستقل الطائر المتقلب

وأصل الظعينة الراحلة التي يُرحل عليها، أي يُسار، ومنه حديث سعيد بن جبير: "ليس في جمل ظعينة صدقة"، فان روي (جمل) بالإضافة فالظعينة المرأة، وان روي (جمل بالتنوين فهو الجمل الذي يظعن عليه، وعندها تكون التاء في ظعينة للمبالغة). وقد ورد في كتاب الله العظيم أن الظَّعنَ بمعنى الارتحال في قوله الكريم: "والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظُعنكم ويوم إقامتكم، ومن أصفافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين". (٤) وفي هذه الآية تصوير دقيق لنمط من حياة العرب في الجاهلية، وأدوات استعمالهم وقت الرحيل لملاءمة طبيعة حياتهم البدوية التي تخضع في معظمها للحل والترحال تبعاً لظروف الحياة والمعيشة لا سيما أن طبيعة ذلك تستوجب الحمل الخفيف كبيوت الشعر في نصبها وهدمها.

ومهما يكن، فان من المعاني التي تشملها مادة الفعل (ظُعنَ) الارتحال، كما بيّنت الآية الكريمة ذلك. وفي معجم ألفاظ القرآن الكريم ورد المعنى التالي للفعل ظعن: تدور المادة على الشخص من مكان إلى مكان، وما يتصل بذلك (٥) وتستخدم الجمال التي تحمل فوقها الهودج التي تجلس فيها النساء، ويقود هذه الجمال الرجال والفتيان والعبيد، وذلك حسب مقتضى الحال، حيث تخدم النساء وهن على ظهور الجمال في الهودج.

---

٠١ لسان العرب، فصل الظاء المعجمة، للإمام ابن منظور المصري (ت سنة ٧١١هـ) (٢٢ مجلداً) المجلد الثالث عشر، طبعة دار صادر ص ٢٧٠.

٠٢ المصدر السابق ص ٢٧١.

٠٣ ديوان بشر بن أبي خازم، تحقيق عزة حسن، الطبعة الثانية، نشر وزارة الثقافة - دمشق سنة ١٩٧٢م، ص ١١.

٠٤ الآية (٨٠) من سورة النحل.

٠٥ معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية - القاهرة، نشر دار الشروق سنة ١٩٨١م، حرف الظاء ص ٣٩٩.

ولعل من أكبر دواعي الارتحال من مرابع اللهو والمنازل التي عهدوا عيشهم فيها، هو السعي طلباً للعشب والماء عندما يقل المطر أو ينعدم، ويجف العشب أو تمحل الأرض، فلا يجد البدوي بُدّاً من نجعة لأهله وقومه ومواشيه. فكانوا يرسلون الرّواد في مناحي الأرض ليبحثوا عن مكان جديد ملائم للقوم من حيث توفر الماء والكأ والطمانينة، لأن من دواعي الارتحال أيضاً، الهرب من الحروب والغارات وأخذ الثارات، فتصان بذلك الأعراض والأرواح والأموال. فحياة العرب البدوية تملّي عليهم التنقل من مكان الى مكان آخر، حتى غدا الارتحال عنواناً بارزاً عندهم، ومعلماً في حياتهم، لذا أضفوا على ذلك الألفاظ والمسميات المناسبة: كالظعن والارتحال والأسفار والانتقال والانتجاع والاقامة، وغير ذلك مما يناسب طبيعة عيشهم، كما أوجدوا المسميات لوسائل النقل والارتحال، فكان من أبرزها وأكثرها انتشاراً الظعينة، حيث حملت معنى المرأة في الهودج، كما حملت اسم الجمل الذي يحمل الهودج.

ويتحدث الدكتور شوقي ضيف عن المرأة العربية آنذاك (في الجاهلية) فيقول: (٦) "وكانوا كثيراً ما يصفون ظعنها، وهي ترحل في الجزيرة من موضع الى موضع، وكانت الرحلة أساساً في حياتهم، فهم يرحلون وراء منابت الغيث، وينتقلون معها حيث حلت".

أما بالنسبة للأوقات التي كانت يحدث فيها الرحيل، فقد اختلفت حسب اختلاف دواعيها. وأغلبها ما كان يحدث أول الصيف عندما يبدأ الجفاف وتنضب الغدران، كما تنوعت ساعات الرحيل، فمنها ما يكون وقت السحر، ومنها ما يكون ليلاً أو ضحى أو عند الظهر. ومهما يكن فإن الارتحال كثيراً ما ترك غصة وحسرة في نفس البدوي، لذا فقد ترجم الشعراء هذه الأحاسيس شعراً فأبدوا الحزن والهلح أحياناً، الى جانب بكاء غزير، حتى اننا لا نكاد نجد شاعراً جاهلياً أو من جاء بعدهم بقليل، قد غفل عن ذلك. فهذا (بشر بن أبي خازم) يعبر عن ذلك بقوله: (٧)

فظللت من فرط الصبابة والهوى طرّفا فؤادك مثل فعل الأيْهم

٠٦ العصر الجاهلي د. شوقي ضيف، طبعة دار المعارف بمصر، الطبعة السادسة سنة ١٩٦٠، ص ٢١٣.

٠٧ المفضليات (للمفضل بن محمد بن يعلى الضبي ت سنة ١٧١هـ)، تحقيق أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون، الطبعة السادسة - بيروت سنة ١٩٦٤، ص ٣٤٦.

وقول (عبيد بن الأبرص): (٨)

فوقفت فيها ناقتي لسؤالها فصرفت والعينان تبتدران  
سجما كأن شنانة رجبية سبقت إليّ بمائها العينان

وفي مساء الشاعر لصاحبه أو صاحبيه بقوله: تبصر صاحبي، تبين صاحبي، خليلي، تبين خليلي أو نحو ذلك، لدليل على كثرة بكائه الذي حجب عن عينيه صفاء الرؤيا لكثرة الدمع أو لما أصاب عينيه من ضعف في البصر نتيجة هذا البكاء الحار. ومنه قول (زهير بن أبي سلمى) يصف حاله عند ظعن أحبابه فيقول: (٩)

كأن عيني وقد سال السليل بهم وعبرة ما هم لو أنهم أمم  
غرب على بكرة أو لؤلؤ قلق في السلك خان به رباته النظم

أما الشاعر (الأخطل التغلبي) فيصف نفسه بالصرع بضربة عنق وذلك لشدة تحسره على فراق أحبابه ساعة الظعن فيقول: (١٠)

صحا القلب إلا من ظعائن فاتني بهن ابن خلاس طفيل وعزهل  
كأني غداة انصعن للبين مسلم بضربة عنق أو غوي معذل

وفي تطور آخر من البكاء على الأظعان نجد شاعراً متأخراً عن رتبة الجاهليين وهو المتنبي، يغالي في هلهه وجزعه وشدة بكائه لرحيل أحبابه، لدرجة وصل معها الحد أن ذهبت مقلته ولم يبق إلا المحجران في وجهه، ولعل مثل هذا يعد تطوراً في شدة الوجد لرحيل المحبوبة التي كانت ضياءً لقلبه وبمنزلة المقلة للقلب أيضاً، وبرحيلها عمي قلبه وضاع ذهنه، كمقلة ذهبت من شدة البكاء وبقي محجراً، فيقول: (١١)

يقيان في أحد الهواج مقلة رحلت فكان لها فؤادي محجراً  
قد كنت أحذر بيهم من قبله لو كان ينفع حائناً أن يحذرا

٨ ديوان عبيد بن الأبرص طبعة دار صادر، شرح كرم البستاني، ص ١٤٨.

٩ ديوان زهير بن أبي سلمى، طبعة دار صادر - بيروت، شرح كرم البستاني، ص ٩١.

١٠ ديوان الأخطل، الطبعة الثانية، نشر دار المشرق - بيروت ص ٢ (ابن خلاس وعزهل: ابنا عم من تغلب).

١١ ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري (٤ أجزاء)، ضبط وتصحيح مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، ج ٢ ص ١٦٢، نشر مكتبة مصطفى الحلبي سنة ١٩٧١م.

ويبلغ عنده الوجد حداً أن تمنى لو كان يستطيع منع السحاب من انزال  
المطر حتى لا يكون العشب في مكان آخر بعيداً عن ديرته، فيكون ذلك سبباً  
لرحيل أهل محبوبته طلباً للنجعة وبالتالي رحيلها معهم. فقد دغل السحاب  
بمنزلة الغراب الذي ينعب بالشؤم لتفريق الأحبة فيقول:

ولو استطعت اذا اغتدت روادهم لمنعت كل سحابة ان تقطرا  
وإذا السحاب أخو غراب فراقهم جعل الصياح ببينهم ان يُمطرا

فهو في البيت الثاني قد جعل الغيث أخا للغراب، عندما جعل المطر  
صياحه، لأن سبب الافتراق حسب زعم العرب هو صياح الغراب، وكذلك المطر  
سبب ارتحالهم.

ويصف الحمائل وما عليها من هواج تجلس فيها النساء ومنهنّ محبوبته  
التي نعتها بصفات الجمال وكأنها المهابة ونحوها فيقول:

فاذا الحمائل ما يخذن بنفننن الا شققن عليه ثوباً أخضرا  
يحملن مثل الروض إلا أنه أسبى مهابة للقلوب وجؤذرا

هذه المحبوبة التي أضفى عليها أسمى آيات الجمال والدلال، سببت له الضعف  
والهزال حتى انه لم يعد يقوى على حمل قناته، وحتى أصبح خنصره نحيفاً مما  
سبب اتساع خاتمه على خنصره، وكلام المتنبي هذا ضرب من المغالاة التي سار  
فيها بعض الشعراء في الجاهلية والاسلام، فهو يقول في القصيدة ذاتها:

فبلحظها نكرت قناتي راحتي ضعفاً، وأنكر خاتمي الخنصر

ونجد للمتنبي أشعاراً في المغالاة غير هذا، من ذلك قوله يصف حاله أيضاً  
بسبب رحيل أحبابه فيقول: (١٢)

كفى بجسمي نحولاً أنني رجل لولا مخاطبتي اياك لم ترني

ومثله قول الشاعر الصنوبري (\*)

ذبت حتى ما يستدل على أني حيّ الا ببعض كلامي.

ويفعل الهيام بالمتنبي فعله لفراق أحبابه، حيث سلبن حياته برحيلهن إذ يقول: (١٣)

لبس القباب على الركاب وانما هن الحياة ترحلت بسلام

كذلك قوله الذي بدت المغالاة فيه واضحة بيّنة، حيث جعل من بكائه الغزير يوم ظعن أحبابه، مصدراً عظيماً للماء بحيث يكفي الظعن كله للشرب، وهذا منتهى الخيال الشعري والمغالاة فيه، فهو يقول: (١٤)

ان كنت ظاعنة فانّ مدامعي تكفي مزادكم وتُروي العيسا

وحقيقة الأمر، فان مثل هذا الأسلوب يمكن عده تجديداً في المعاني الشعرية في العصر العباسي، وان كانت بعض أنماط المغالاة قد بدت في شعر الجاهليين وغيرهم كما في قول المهلهل بن ربيعة: (١٥)

فلولا الريح أسمع من بحجر صليل البيض تُقرع بالذكور

فالمسافة بين حجر باليامة، وبين مكان الوقعة في عنيزة مسيرة أيام، لذا فالمغالاة ظاهرة تماماً في هذا البيت. وقد تأثر امرؤ القيس بمهلهل بن ربيعة في مثل هذه الخطرات، غير أنه أقرب للعقل من سابقه لاعتماده على حاسة البصر فقال:

تنورتها من أذرعَات وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر عال

---

\* ديوان الصنوبري، تحقيق د. احسان عباس، طبعة دار الثقافة - بيروت سنة ١٩٧٠م، ص ٤٨٧.

١٣ ديوان المتنبي ج ٤ ص ٨.

١٤ المصدر السابق ج ٢ ص ١٩٤.

١٥ تاريخ الكامل لابن الأثير ج ١ ص ٣١٩.



فالمعاني العباسية تعدّ تجديدًا في المعاني الشعرية. ونسوق مثلاً آخر على تجديد المعاني الشعرية في العصر العباسي، وهو قول بشار بن برد: (\*)

وهبت له على المسواك ريقاً فطاب له بطيب ثنيتيك  
أقبله على الذكرى كأني أقبل فيه فاك ومقلتيك

فتقبيل الفم شيء معروف عند الشعراء القدماء، كذلك تقبيل الخدود والجيد، إنما تقبيل العينين يعدّ نمطاً جديداً في الشعر العربي.

وإن كان المتنبي قد دحل السحاب والمطر في منزلة الغراب الأسحم كنذير شؤم لفراق الأحباب، وحملهما ذنب ذلك، فإن شاعراً آخر هو (أبو الشيص) يحمل الأبل الذنب كل الذنب في رحيل الأحباب، بل ويجعل الناقة أو الجمل بمنزلة الغراب فيقول:

ما فرق الآلاف بعد الله إلا الإبل  
والناس يلحون غراب البين لما جهلوا  
وما إذا صاح غراب في الديار احتملوا  
ولا على ظهر غراب البين تطوى الرّحل  
وما غراب البين إلا ناقة أو جمل

ومثله قول أبي تمام: (١٦)

كم من دم يُعجز الجيش ألّهام إذا بانوا، ستحكم فيه العرمس الأجد

والمعنى: أن الجيش قد يعجز عن قتل المحب المستهام، غير أن العرمس الأجد وهي الناقة التي تحمل الأحباب، قد قتلتها بحملها لهم ورحيلها بهم.

وما أكثر ما عبر الشعراء عن شدة وجدهم ولوعتهم لفراق أحبابهم، وما اعتراهم من حزن، وما سكبوا من دموع ثرة نتيجة هذه اللوعة وهذا الفراق، فهذا

---

\* ديوان بشار بن برد، جمع بدر العلوي ص ١٧٢.

١٦ ديوان أبي تمام (٤ أجزاء) بشرح التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام الطبعة الثانية سنة ١٩٦٩، نشر دار المعارف بمصر، ج ٢ ص ١٠.

ابن الرومي يعبر عن ذلك بقوله: (١٧)

الموت دون تفرق الأحباب وعذاب نأيمهم أشد عذاب  
لم تبل مذ خلقت نفوس ذوي الهوى يوماً بمثل ترحل وذهاب  
بانوا بلبك رائحين وخلفوا لك دمة موصولة التسكاب

ويقول أبو تمام أيضاً وقد اشتد وجده وهيامه فبكى حولا كاملاً بعد أن ظعن  
أحبابه ثم عاد إلى صوابه بعد ذلك كما فعل (لبيد العامري): (١٨)

ظعنوا فكان بكاي حولا بعدهم ثم ارعويت وذاك حكم لبيد

وقوله (حكم لبيد) إشارة إلى بيت لبيد العامري وهو: (١٩)

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملاً فقد اعتذر

وهذا البيت من قصيدته التي يخاطب فيها ابنتيه لما حضرته الوفاة، ويطلب  
منهما البكاء عليه دون أن تخمشا وجهيهما أو تحلقا رأسيهما ومنها قوله:

تمنى ابنتاي أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربعة أو مضر  
فقوما فقولا بالذي قد علمتما ولا تخمشا وجهها ولا تحلقا شعر  
وقولا هو المرء الذي لا خليله أضع، ولا خان الصديق ولا غدر

وفي موقف آخر مما يخلفه فراق الأحباب في النفوس، نجد (العماد الكاتب  
الأصفهاني) يزيد على غيره من الشعراء الذي أظهروا الجزع والهلع وشدة البكاء  
عند فراق الأحباب، يزيد عليهم بأن سلخ يوم الفراق من عمره، وهذا تطور عند  
المحبين في إظهار مدى تعلقهم بمن أحبوا، يقول العماد الأصفهاني في قصيدته  
التي مدح بها نجم الدين أيوب: (٢٠)

يوم النوى ليس من عمري بمحسوب ولا الفراق إلى عيشي بمنسوب

---

١٧ ديوان ابن الرومي، تحقيق حسين نصار طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٧٣م ج ١ ص ٣٢٣.

١٨ ديوان أبي تمام ج ١ ص ٣٨٧.

١٩ ديوان لبيد، طبعة دار صادر ص ٧٩.

٢٠ الروضتين في أخبار الدولتين، لشهاب الدين المقدسي الشافعي، نشر دار الجيل - بيروت، ج ١

ص ١٤٤.

وفي القصيدة يدعو للممدوح بسلامة العودة ويشبه ذلك بلم شمل سيدنا يوسف عليه السلام مع والده سيدنا يعقوب عليه السلام، ومع إخوته في مصر فيقول:

ويستقر بمصر يوسف وبه تقرر بعد التنائي عين يعقوب  
ويلتقي يوسف فيها باخوته والله يجمعهم من غير تثريب

والمتنبي في موطن آخر، نجده عند ذكر الطعائن، يمزج ذلك بالدمع السخين ويشبه ذلك الدمع بما فعله في الخدود وتأثيره فيها، بتأثير الجمال التي عليها الهواج على حجارة الطريق التي تمر فيها فيقول: (٢١)

أركائب الأحباب ان الادمعا تطس الخدود كما تطسن اليرمعا  
لذا فهو يشفق على أحبابه في الهواج، ويطلب من الركائب ان تترفق بمن عليها فتسير وثيدة حتى لا تسبب ازعاجاً للأحباب فيقول بعد ذلك:

فاعرفن من حملت عليكن النوى وامشين هونا في الأزمة خُصعا  
قد كان يمنعني الحياء من البكا فاليوم يمنعه البكا أن يُمنعا  
حتى كأن لكل عظم رنة في جلده ولكل عرق مدمعا

ويبدع ويجيد في حسن عرضه لجمال النساء في الهودج ضمن صور بلاغية بارعة التشبيه كقوله بعد الأبيات السالفة:

سفرت وبرقعها الحياء بصفرة سترت محاسنها ولم تك برقعا  
فكأنها والدمع يقطر فوقها ذهب بسمطي لؤلؤ قد رُصعا

وللدكتور شوقي ضيف تعليق على كثرة بكاء الشعراء على الأظعان حيث يقول: (٢٢)

"ووقف الشعراء طويلاً يصورون حبهام للمرأة وما يذرفون من دموعهم وكانت

---

٢٠. الروضتين في أخبار الدولتين، لشهاب الدين المقدسي الشافعي، نشر دار الجيل - بيروت، ج ١ ص ١٤٤.

٢١. ديوان المتنبي ج ٢ ص ٢٥٩.

٢٢. العصر الجاهلي، طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٠، الطبعة السادسة ص ٢١٣.

نكراهما لا تزال تلم بهم، ومن ثم أكثروا الحديث عن طيفها وما يثيره في أنفسهم من تباريح الحب، ولهم في وصف هذه الذكرى وما تصنع بهم شعر كثير، يصفون فيه صوابتهم على شاكلة قول المرقش الأصغر:

صحا قلبه عنها، على أن ذكره إذا خطرت دارت به الأرض قائما

وكانوا كثيراً ما يصفون ظُعنُها وهي ترحل في الجزيرة من موضع الى موضع، وكانت الرحلة أساساً في حياتهم، فهم يرحلون وراء منابت الغيث، وينتقلون معها حيث حلت".

ومثل ذلك ما قاله الشاعر مسلم بن الوليد الأنصاري (ت سنة ٢٠٨هـ) وهو الملقب بصريع الغواني، وقد شفه الوجد، فأن وبكى حتى غدا كالمخبول فؤاده من شدة حزنه على فراق أحبابه، فيقول مخاطباً غيره حاثاً إياه على البكاء، بل لعله يحث نفسه هو على عادة العرب في استعمال هذا الأسلوب: (٢٣)

هلا بكيت ظلعائنا وحمولا ترك الفؤاد فراقهم مخبولا  
فاذا زجرت القلب زاد وجيبه واذا حبست الدمع فاض همولا

أما الشاعر أبو الحسن التهامي، فان بصره يتعلق بأحبابه ولا يكاد يرى غيرهم، فهو ينظر اليهم بعين الحسرة واللوعة من جراء هذا الفراق الذي سبب له غصة وهياماً فهو يقول: (٢٤)

الليل حيث حللن فيه نهار فكذا الليالي وصلهنّ قصار  
يا صاح ابصر في السراب ظواعنا كالدرد يطفو فوقه التيار  
تقف العيون إذا وقفن وأينما دارت بهن العيس فهي تدار

والأبيات من قصيدة يمدح بها المظفر بن عبد الجبار بن علي.

وفي مخاطبة الأصحاب، وفي وصف حال المشغوف المستهام، الباكي الولهان

---

٢٣ ديوان مسلم بن الوليد، تحقيق سامي الدهان، طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٨م ص ٥٣.  
٢٤ ديوان أبي الحسن التهامي (ت سنة ٤١٦هـ) الطبعة الثانية سنة ١٩٦٤م نشر المكتب الاسلامي بدمشق، ص ٩٩.

لفراق الأحباب، يقول البحتري من قصيدة يمدح بها الحسن بن وهب: (٢٥)

خذا من بكائي في المنازل أو دعا وروحا على لومي بهن أو اربعا  
ظلعائن أظعن الكرى عن جفوننا وعوضنها منه سهاداً وأدمعا  
نوين النوى ثم استجبن لهاتف من البين نادى بالفراق فأسمعا

ويقول في قصيدة ثانية يمدح بها أبا عيسى العلاء بن صاعد: (٢٦)

أحاجيك هل للحب كالدار تجمع؟ وللحائم الظمان كالماء ينقع؟  
وهل شيع الأظعان بغتا فراقهم كمنهلة تدمي جوى حين تدمع؟  
أما راعك الحي الحلال بهجرهم وهم لك عدوا بالتفرق أروع

وله أيضاً: (٢٧)

فرقت شملنا النوى بعدما كنا جميعاً في ظل عيش حميد  
لو ترانا عند الوداع وقد لون سكب الدموع ورد الخدود  
حين ساروا بغانيات وسام أنسات حور المدامع غيد  
يتلفتن من بعيد وينظرن استراقاً إلى المحب العميد  
يتهادين حول محوارة العينين مصفرة الترائب رود

أما الشيخ ناصيف اليازجي، فله باع في ذكر الأظعان وإظهار اللوعة عند الفراق  
وذرف الدمع السخين، فهو يقول في أسلوب حضاري في قصيدته التي يمدح بها  
(صبحي باشا صاحب ولاية سوريا عندما قدم إلى بيروت): (٢٨)

---

٢٥ ديوان البحتري، تحقيق حسن كامل الصيرفي، الطبعة الثانية، طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٣م، المجلد الثاني ص ١٢٦٣.

٢٦ المصدر السابق ص ١٢٦٨.

٢٧ ديوان البحتري المجلد الثاني ص ٧٦٨، ص ٧٦٩ (المحب العميد: الذي هذه العشق. وسام: جمع وسيمة).

٢٨ ديوان الشيخ ابراهيم اليازجي، تقديم مارون عبود، نشر دار مارون عبود بيروت سنة ١٩٨٣ ص ١٠٧.

أمنازل الأحباب ما فعل الالى      كنا عهدناهم بربعك أولا  
وعلى الهودج كل سيف لامع      أترى يحاول بينها متخللا  
الله أكبر يا نياق تركتني      بالشوق أجبر منك في تلك الفلا  
خلفت لي ما تشتهين قليله      من ماء دمع لا يزال مسلسلا

وقوله في قصيدة يمدح بها محمد راشد باشا (صاحب ولاية سوريا في فترة  
ثانية):(٢٩)

في الركب بين هودج الارام      قمر يسايرهن تحت لثام  
تلك الركائب سار قلبي خلفها      متتبعا لمواطيء الأقدام

اما (جرير) فله قوله، حيث كانت الطعائن سببا في صدع فؤاده لرحيلهن  
عنه:(٣٠)

صدع الطعائن يوم بن فؤاده      صدع الزجاجة ما لذاك تدان

وله أبيات مشابهة لما ذكر، قالها في قصيدته التي يهجو بها الأخطل:(٣١)

ماذا لقيت من الأظعان يوم قني      يتبعن مغتربا بالبين ظعانا  
أتبعتهن مقلة إنسانها غرق      هل ما ترى تارك للعين إنسانا

وللشاعر (سبط بن التعاويذي) مساهمة فعالة لهذا النوع من الشعر الذي يبكي  
فيه الشاعر بحرارة يوم فراق أحبته وظعنهم، فهو يقول في قصيدته التي مدح  
بها حماد بن نصر:(٣٢)

وعار أن تزم ليوم بين      جمالهم ولي صبر جميل  
فلا رقت الدموع وقد تولت      ركبهم ولا بركد الغليل  
وفي الاظعان من لولا اعتلاقي      بهم لم يعتلق جسدي النحول

٢٩. المصدر السابق ص ١١٥.

٣٠. ديوان جرير شرح محمد اسماعيل عبد الله الصاوي، نشر دار الاندلس - بيروت سنة  
١٣٥٣هـ، ج ٢ ص ٥٧٠.

٣١. المصدر السابق ص ٥٩٦.

٣٢. ديوان سبط بن التعاويذي، نشر دار صادر، نسخة مصورة عن طبعة المقتطف بمصر سنة  
١٩٠٣، ص ٣٤٠.

وكذلك قوله في قصيدته التي مدخ بها الموفق ابا علي الحسين بن الدوامي: (٢٣)  
ظعنوا بالعزاء والصبر، والوجد ما ظعن  
فوجيب الفؤاد مذ نفر الحي ما سكن  
من القلب مع الصبابة والشرق مرتهن

ومثل ذلك أيضاً ما قاله الشاعر (محمود سامي البارودي) يصف حاله يوم  
الفراق في تقسيمات صائبة، فهو يقول: (ديوانه ج ٢ ص ٤٧٤ بشرح محمود  
المنصوري)

وكيف أملك نفسي بعدما ذهب يوم الفراق شِعاعاً إثر من رحلوا  
فالصبر منخزل والدمع منهمل والعقل مختبل والقلب مشغل

غير أن الشاعر (البحتري) يجد عنده الصبر وعدم الإذعان للوعة الفراق، فلا  
يبكي على الأظعان، ولا يهزه نوح الحمام فهو يقول: (الديوان ج ١ ص ٤٤٠)

أطاع عاذله في الحب إذ نصحا وكان نشوان من سكر الهوى فصحا  
فما يهيجه نوح الحمام إذا ناح الحمام على الأغصان أو صدحا  
ولا يفيض على الأظعان عبرته إذا نأين ولو جاوزن مطلحا

والأبيات من قصيدته التي مدح بها الفتح بن خاقان، ويناقض نفسه بنفسه  
عندما بكى وتحسر وقت رحيل أحبابه في موطن سابق.

ولعل أشعر المحبين صبابة قائل البيتين التاليين (وهو أبو حية النميري) الذي  
تبدو فيهما اللوعة والنفسية المحبة الشفافة ضمن فن بديعي لا ينكر عندما  
يصور عينيه وقد حجبت الدموع الرؤيا عنهما تارة، ثم تترك له الرؤيا تارة  
أخرى حين تنحسر في قوله: (أمالى السيد المرتضى) \*

نظرت كأني من وراء زجاجة الى الدار من فرط الصبابة أنظر  
بعينين طورا تفرقان من البكا فأعشى، وطورا تحسران فأبصر

---

٢٣ المصدر السابق ٤٢٦.

\* أمالى السيد المرتضى (ت سنة ٤٣٦ هـ)، تصحيح وضبط محمد بدر الدين النعساني الحلبي،  
مطبعة السعادة بمصر، الطبعة الأولى سنة ١٩٠٧، ج ٢ ص ١٠٣.

ونجد أيضاً عند الشاعر (جرير الخطفي) مثل هذا اللون من اللوعة والحسرة لفراق الأحباب، ويظهر تشاؤمه من الغراب الذي يعد نذير شؤم، مؤشراً للتفريق والنوى، فهو يقول في قصيدة مدح بها الحجاج: (٢٤)

هاج الهوى لفؤادك المهتاج فانظر بتوضح، باكر الأحداج  
هذا هو شغف الفؤاد مبرح ونوى تقاذف غير ذات خلاج  
ان الغراب، بما كرهت لمولع بنوى الأحبة دائم التشحاج  
ليت الغراب غداة ينعب بالنوى كان الغراب مقطع الأوداج

أما الشاعر ذو الرمة (غيلان بن عقبة العدوي ت سنة ١١٧ هـ)، فإنه يضع نفسه في موقف الحيران بين فضح لوعته بعبراته، أم انه يصبر متعقلاً وقت رحيل حبيبته (مي) فهو يقول: (٣٥).

فوالله ما أدري أجولان عبرة تجود بها العينان أحجى أم الصبر؟

ويصف شروذ ذهنه وحسرتة لفراق (مي) بعد ان رأى منازلها وقد أصبحت خالية من أهلها، كما أصبحت محط وقوع الغربان وهي تلتقط ما بقي وراء الناس من الطعام او الحبوب فيقول في وصف دقيق صادق: (٣٦)

أخط وأمحو الخط ثم أعيده بكفي، والغربان في الدار وقع

ويصف ذو الرمة دار (مي) ثانية بعد رحيلها وقد خلت من أهلها وغدت هدفا للغربان والحمام طلباً لبقايا الطعام، فهو يقول: (ديوان ص ١٥٨٠).

لقد ظعننت (مي) فهاتيك دارها بها السحم تردي والحمام الموشم  
كأن أنوف الطير في عرصاتها خراطيم أقلام تخط وتعجم

فهو يكرر المعنى كما هو واضح في الأبيات المذكورة. وما أبدع ما رمى اليه من تشبيه جميل عندما شبه مناقير الطيور بأطراف الأقلام.

٢٤. ديوان جرير ج ١ ص ٨٩.

٣٥. ديوان ذي الرمة، شرح الإمام أبي نصر الباهلي، رواية الإمام أبي العباس ثعلب، تحقيق د. عبد القدوس صالح ج ١ ص ٥٧٢.

٣٦. المصدر السابق ص ٧٢١.



ويكرر المعنى في بيت آخر فيقول: (الديوان ص ٤٥٩).

ألا ظعننت ميّ فهاتيكَ دارها بها السحْم تردّي والحمام المطوّق

وأجمل من هذا قول جرير بنفس المعنى: (الديوان ج ١ ص ٣٤١).

ان الشواحيج بالضحي هيجنني في دار زينب والحمام الوقّع

فمثل هذه الصور الشعرية رائعة التصوير صادقة في وصف المرافق والديار  
بعد رحيل أهلها عنها، وما يهم الشاعر هو ذكر دار صاحبتها.

وفي موطن آخر يصف نفسه وكأنه سكران من شدة الحزن لفراق صاحبتها  
(خرقاء) التي سارت حملوها الى أرض بعيدة، مما احزنه وأفزعته وأجرى دمعته،  
فهو يقول: (٣٧)

كأنني اخو جريالة بابلية من الراح دبّت في العظام شمولها  
أخرقاء للبين استقلت حملوها نعم غربة فالعين يجري مسيلها

وذو الرمة يصرح بأنه منقاد لهواه ولشوقه تجاه صاحبتها (مي أو خرقاء) او  
غيرهما كما يصور له عشقه وهيامه، فهو يقول: (٣٨)

لعمرك اني يوم جرعاء مشرف لشوقي لمنقاد الجنيبة تابع  
غداة امترن ماء العيون ونغصت لبناً من الحاج الخدور الروافع  
ظعائن يحلن الفلاة وتارة محاضر عذب لم تخضه الضفادع

فهو يذكر ان ظعائن أحبابه تكون تارة بعيدة عن الماء، وتارة تكون عند الماء  
العذب الذي لم تخضه الضفادع. وهو بذلك يعني ان ظعن احبابه قد بعدت عن  
القرى وشط نأيتها مما خلف له اللوعة والحسرة.

فالرحيل عند العرب لا يزال سبباً مهيناً للدمع العزيز، الى جانب اللوعة

---

٣٧ المصدر السابق ص ٩٠٦، ٩٠٧.

٣٨ المصدر السابق ص ١٢٨٠ - ص ١٢٨٢.

والحسرة عند الكثيرين، وكما رأينا، فقد عبر الكثيرون من شعراء العرب عن حزنهم وألمهم لفراق الأحباب في معرض حديثهم عن الأظعان. كما لم يغفل الشعراء عن ذكر أوقات الظعن، حيث تباينوا في تحديد هذه الأوقات التي سأذكر طرفاً منها كما وردت في أشعارهم.

## أوقات الظعن :

لعل من أهم أسباب الظعن طلب العشب والماء، فلم يجد البدوي غضاضة في التنقل المستمر في جميع أنحاء الجزيرة العربية لهذا الغرض، وقد يحوجه الأمر الى الرحيل خارج جزيرة العرب، الى بوادي الشام والعراق ان وجد الأمان، وقد ألمح الدكتور شوقي ضيف الى سبب تنقل البدوي فقال في معرض حديثه عن الأظعان وترحلها: "وكانت الرحلة أساساً في حياتهم، فهم يرحلون وراء منابت الغيث ويتنقلون معها حيث حلت".

فهذا الشاعر ذو الرمة يذكر أن العرب تجتمع أنسة بقرب الأحياء من بعضها وكأنهم عقد منظوم، فعندما يأتي الصيف ويحل الجفاف، فان كل مجموعة ترحل الى جهة ترتئها طلباً للعشب والماء. فهو قد جعل الصيف والجفاف سبباً لتفرق الأحباب وانفساخ الشمل وانفراط العقد فهو يقول: (٣٩)

وقوفاً على مطموسة قطعت بها نوى الصيف أقران الجميع الأوالف

فالصيف في كثير من الأحيان فصل الرحيل. غير ان العديد من الشعراء قد بين أوقاتاً معينة يظعن فيها الناس، ومن هذه الأوقات وقت الظهر حيث ذكره الشاعر ذو الرمة بقوله: (٤٠)

فلما تقضت حاجة من تحمل وأظهرن واقلولى على عوده الجحل  
وقربن للأحداج كل ابن تسعة تضيق بأعلاه الحوية والرحل  
الى ابن ابي العاصي هشام تعسفت بنا العيس من حيث التقى الغاف والرمل

---

٣٩ ديوان ذي الرمة ص ١٦٢٤.

٤٠ المصدر السابق ص ١٦١٧. (الجحل: الحرباء العظيم. الحوية: المركب على الجمال مثل الهودج. اقلولى: ارتفع).

وهذا الشاعر (جرير) يذكر الرحيل في فصل الصيف عندما اشتد الحر وجف العشب أو انقضى، ونفذت مياه الغدران، فلا مناص من الرحيل، فهو يقول: (٤١)

بَانَ الخَلِيطُ بِرَامَتَيْنِ فَوَدَّعَا    أَوْ كَلِمَا رَفَعَا لِبَيْنِ يَجْزَعُ  
رَدَّوَا الْجَمَالَ بِذِي طُلُوحٍ بَعْدَمَا    هَاجَ الْمَصِيفُ وَقَدْ تَوَلَّى الْمَرْبَعُ

كذلك نجد الشاعر لبيد العامري وقد ذكر أن سبب الظعن إنما هو طلب الماء في الصيف في قوله (ديوان لبيد ص ١٠٤)

تَحْمِلُ أَهْلَهَا وَاجِدَةً فِيهَا    نَعَاجَ الصَّيْفِ أُخْبِيَةَ الظَّلَالِ

وان كان بعض الشعراء قد ذكروا ان الأظعان قد رحلت ظهراً أو خصوا فصل الصيف كوقت الزامي للرحيل في بعض الأحيان، فان (البحثري) يحدد رحيل الأحباب في الظلام، ولعل ذلك مرده الى مناسبة الجو للرحيل في الليل، او حتى لا يشعر أهل الهوى بنوى الأحباب ساعة الرحيل، من ذلك قوله: (٤٢)

رَفَعُوا الْهُوَادِجَ مَعْتَمِينَ فَمَا تَرَى    إِلَّا تَلَأُلُوْ كَوْكَبَ فِي هَوْدَجٍ  
أَمْثَالَ بَيضَاتِ النِّعَامِ يَهْزُهَا    لِلْبَعْدِ أَمْثَالَ النِّعَامِ الْهَدَجِ

فأحمالهم وهوادجهم عليها، تسير مهتزة وكأنها مرتعشة اما لثقل الأحمال أو قصداً حتى لا تنزعج النساء في الهوادج.

ومثله قوله كذلك: (ديوان البحثري ج ٢ ص ١٢٦٣).

وحاولن كتمان الترحل بالدجى    فنمَّ بهنَّ المسك حين تَضَوَّعا

ومثله قول (ذي الرمة) الذي يذكر أن صاحبتة (مي) قد رحلت أظعانها في الظلام وفي الغبش فهو يقول: (ديوان ذي الرمة ص ١٠١٩)

أَجَدَّتْ بِأَغْبَاشٍ فَأُضْحَتِ كَأَنَّهَا    مَوَاقِيرَ نَخْلٍ أَوْ طُلُوعَ نَوَاضِرِ

---

٠٤١ ديوان جرير ج ١ ص ٣٤٠، ص ٣٤١ (والبيتان من قصيدة يهجو بها الفرزدق).

٠٤٢ ديوان البحثري ج ١ ص ٤٠٠.

ويشبه أظعانها كذلك بالنخيل الذي كثر حملة وتعددت ألوان ثمره.

ويقول البحري كذلك بما يشبه قوله السابق في البيتين أنفأ، ويشبه النساء في الهودج فوق الجمال بغزلان بيضاء فوق أرض سوداء مما يزيد بها بهاء وجمالاً، فهو يقول: (٤٣)

يشوقك توخيد الجمال القناعس بأمثال غزلان الصريم الكوانس  
ببيض أضاعت في الخدور كأنها نجوم دجى جلت سواد الحنادس

والصريم تعني الأرض السوداء التي لا تنبت شيئاً، من ذلك قول الله سبحانه وتعالى في سورة القلم الآية (٢٠): "فأصبحت كالصريم" وهو الليل الشديد الظلمة.

وله قوله الذي يصف فيه جمال النساء في الهودج وقد أبعدن الملاءة عن باب الهودج فبان الجمال وظهرت البدور اللواتي وصفهن ببياضهن وصفاء بشرتهن باللؤلؤ المستخرج لتوه من المحار، أو هن كسيوف متقنة الصنع ناصعة لامعة: (٤٤)

إذا نضون شفوف الريط أونة قشرن عن لؤلؤ البحرين أصدافا  
نواصع كسيوف الصقل مشعلة ضوءاً، ومرهفة في الجدل ارهافا

كذلك قوله الذي يشبه القول السابق لأنه يكرر استعمال المعنى الواحد كثيراً، إعجاباً منه بذلك ولعلوقه في ذهنه: (٤٥)

ضل بدر السماء أو كاد لما واجهته وجوه تلك البدور  
اللواتي ينظرن بالنظر الفاتر من أعين الظباء الحور  
يبتسمن من وراء شفوف الرّيط عن برد أقحوان الثغور

٠٤٣ المصدر السابق ج ٢ ص ٢٢ (والبيتان من قصيدته التي يمدح بها أبا صالح عبدالله بن محمد بن يزداد).

٠٤٤ ديوان البحري ج ٣ ص ١٢٨٠ (والبيتان من قصيدة يمدح بها أبا جعفر الطائي).

٠٤٥ المصدر السابق ج ٢ ص ٨٨٤ (والأبيات من قصيدة مدح بها الحسن بن سهل) الرّيط جمع ريطة وهي الملاءة. الشفوف جمع الشف وهو الثوب أو الستر الرقيق. قالت ميسون بنت بحدل الكلبي زوج معاوية بن أبي سفيان:

ولبس عباءة وتقر عيني أحب إليّ من لبس الشفوف

وهناك من الشعراء من ذكر الرحيل وجعله وقت الضحى، ومن هؤلاء المرقش الأكبر (وهو عمرو بن سعد بن مالك)، والمرقش لقب غلب عليه لقوله: (٤٦)

الدار قفر والرسوم كما رقص في ظهر الأديم قلم

يقول: (٤٧)

لمن الظعن بالضحى طافيات شبهها الدوم أو خلايا سفين

ويذكر جرير أن وقت الرحيل كان مبكراً وذلك في قوله التالي في القصيدة التي مدح بها يزيد بن عبد الملك (ديوان جرير ج ١ ص ٢٥٢).

ما حاجة لك في الظعن التي بكرت من دارة الجأب كالنخل المواقير  
كان التذكر يوم البين يشعفني أن الحلیم بهذا غير معذور

وقوله في قصيده ثانية يهجو بها الفرزدق: (ديوان جرير ج ٢ ص ٥٧٠)

هي تؤنسان ودير أروى بيننا بالأعزلين بواكر الأظعان

وفي ذكر التبكير عند الرحيل، نجد الكثيرين من الشعراء قد ذكروا ذلك، لأن العرب تحب التبكير في الأمور، لا سيما الظعن استمتاعاً بالجو المنعش الذي يعين على السير وعلى النشاط، من هؤلاء الشعراء (زهير بن أبي سلمى) الذي ذكر أن أحبابه قد رحلوا مبكرين من وقت السحر، فهن يعرفن قصدهن ولا يخطئن طريق سيرهن، ولعل ذلك من فطنة الحادي ومرشد الطريق، هذه الدراية بمسالك الصحراء شبهها الشاعر باليد التي لا تخطيء الفم، فهن يعرفن الطريق جيداً إلى وادي الرس، فهو يقول: (٤٨)

بكرن بكوراً واستحرن بسحرة فهن وادي الرس كاليد للفم

---

٤٦ - المفضليات، للمفضل بن محمد بن يعلى الضبي ت سنة ١٧١هـ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون، الطبعة السادسة - بيروت سنة ١٩٦٤م ص ٢٢٧.

٤٧ - المصدر السابق ص ٢٢٧.

٤٨ - ديوان زهير بن أبي سلمى، ط دار صادر - بيروت ص ٧٧.

ومثله قول الشاعر (أبي دواد الأيادي، واسمه جارية بن الحجاج بن حُذاق) في قصيدته التي مطلعها:

مَنَعَ النومَ ماويَ التهتامِ وجديرُ بالهم من لا ينام

حيث يذكر الظعائن ووقت الرحيل الذي كان مبكراً، كما وصف هذه الظعائن بجمالها الضخمة التي تشبه السفن الضخمة الكبيرة المنسوبة الى (عدوَلَى) بالبحرين، وهي قرية تنسب اليها صناعة السفن فيقول: (٤٩)

هل ترى من ظعائن باكرات كالعدوليّ سيرهن انقحام

وكذلك الشاعر (المرقش الأصغر) الذي ذكر ان رحيل الأظعان كان مبكراً، ويعلل رحيلهم في هذا الوقت المبكر بوجود أمر جلل وهو غضبها منه لاتلافه المال، غير أنه يعلل عمله هذا حتى لا يذمه الضيف ومطالب الحاجة، فهو يقول: (٥٠)

أذنت جارتني بوشك رحيل باكرأ جاهرت بخطب جليل  
أزمعت بالفراق لما رأتنني أتلف المال لا يذم دخيلي

كذلك فان الممزق العبدى يعيّن الرحيل وقت الغداء حيث يقول: (٥١)

صحا عن تصابيه الفؤاد المشوق وحان من الحي الجميع تفرق  
لدن شال احداجُ القطين غديّة على جلّه الوادي مع الصبح توسق

ومثله قول (علقمة بن عبدة) حيث جعل وقت الظعن قبيل الصبح في قوله:  
(المفضليات ص ٣٩٧):

لم أدر بالبين حتى أزمعوا ظعنأ كلّ الجمال قبيل الصبح مزوم

---

٥٤٩ الأسمعيات لأبي سعيد الأصبغي، المتوفي سنة ٢١٦هـ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر،  
وعبد السلام هارون، الطبعة الخامسة، ط دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٧، ص ١٨٦.

٥٥٠ المفضليات ص ٢٥٠.

٥٥١ المصدر السابق ص ٤٣٢، ص ٤٣٣.

ومثله الشاعر (مَعْقَر بن حَمَار) حيث وقت للرحيل التبكير عند الصبح في قوله: (٥٢)

أمن آل شعناء الحمل البواكر مع الصبح قد زالت بهن الأباعر  
كذلك الشاعر (المرقش الأكبر الذي يشير الى أن وقت الرحيل كان مبكراً،  
ويشبه الظعن بشجر النخيل في أرض تلهم في العلو والضخامة، كما لم يغفل  
عن التصريح بالإشارة الى جمال النساء وطيّب ريحهن فهو يقول: (المفضليات  
ص ٢٣٨).

بل هل شجتك الظعن باكرة كأنهن النخل من ملهمن  
النشر مسك والوجوه دنانير وأطراف البنان عننم  
ومثل ذلك قول الشاعر الأمير عبدالله بن المعتز العباسي: (الديوان، ص ١٢٢)

حث الفراق بواكر الأحداج وسجال يوم نووا بكتم ساجي  
أما عبید بین الأبرص فانه لم يبعد كثيراً عن المعنى الذي أورده (معقر بن  
حمّار) فقد حدد كذلك التبكير قبيل الصبح كوقت للظعن فهو يقول: (٥٣)  
لمن جمال قبيل الصبح مزومه ميممات بلاداً غير معلومة  
ومثله الشاعر (لبید بین ربيعة) في قوله: (٥٤)

كأن أظعانهم في الصبح غادية طلع السلائل وسط الروض أو عُشَرَ  
فهو يحدد وقت الرحيل كما يشبه الأظعان بشجر الطلح أو نبات العُشَرَ.

ومن الشعراء من حدد وقت الرحيل في الهاجرة ظهراً، وقد مر بنا طرف

---

٥٢ قصائد جاهلية نادرة، د. يحيى الجبوري، نشر مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٢، ص ١٠٩.

٥٣ ديوان عبید بن الأبرص، طبعة دار صادر - بيروت ص ١٣٤.

٥٤ ديوان لبید بن ربيعة، طبعة دار صادر - بيروت ص ٥٥.

من ذلك، وهذه أشعار أخرى "في نفس الغرض منها قول المرقش الأصغر، وقد ذكر ان الرحيل قد حصل بعد ان تعالى النهار، فرأى المقيم الظاعن وتحسر من تحسر: (٥٥)

تحملن من جو الوريعة بعدما تعالى النهار واجتزعن الصرائما

ومثله قول النابغة الذبياني الذي بين أن الظعائن قد ارتحلن ظهراً وقت الهاجرة، ومن منعومات في الهواج لا يضيرهن التهجير، وقد ألمح الى أنهن ناعمت جميلات، ذوات بشرة صافية كصفاء بيض النعام المكنون: (٥٦)

ان الحمول التي راحت مهجرة يتبعن كل سفيه الرأي مغيار  
نواعم مثل بيضات بمحنية يحفرن منه ظليماً في ناق هار

وفي قصيدة ثانية، نراه يذكر وقت الرحيل الذي كان ظهراً، ويشبه الأظعان بالسفن ثم يصف النساء في الهواج بالجمال وبياض البشرة وكأنهن ظباء الصحراء أو بقر الوحش، وما كان ليتسنى له تشبيه الظعائن بسفين البحر لولا أن رأى السراب وكأن الجمال ترتفع فيه وتهبط، وتظهر وتختفي عند كل تلة رمل او واد، وكأنها سفن عائمة فوق صفحة الماء (يجوز بها الملاح طوراً ويهتدي)، فهو يقول: (٥٧)

كأن الظعن حين طفون ظهراً سفين البحر يمين القراحا  
قفا فتبيتنا: أعريتنا يُوخى الحي، أم أموا لباحا  
كأن على الحدوج نعاج رمل زهاها الذعر او سمعت صياحا

وأحياناً يكون الرحيل وقت الرواح، وهو ما بعد الزوال الى الليل، وهذا ما ذكره الشاعر المرقش الأصغر في قوله الذي يظهر فيه بكاء المحب على أحبابه الظاعنين: (٥٨)

أمن رسم دار ماء عينيك يسفح غدا من مقام أهله وتروّحوا

٥٥ المفضليات ص ٢٤٥.

٥٦ ديوان النابغة الذبياني، طبعة دار صادر، تحقيق فوزي عطوي سنة ١٩٨٠، ص ٣٦.

٥٧ المصدر السابق ص ٢٠١.

٥٨ المفضليات ص ٢٤١.



كذلك قول (الأعشى) في قصيدته البائية التي هجا بها (الحارث بن ولة) ومطلعها:

تصابيت أم بانث بعقلك زينب وقد جعل الود الذي كان يذهب

وفيها يذكر وقت الرحيل الذي كان عند غروب الشمس فهو يقول: (٥٩)

وشاقتك أظعان لزينب غدوة تحملن حتى كادت الشمس تغرب

هذه طائفة من شعر الأظعان التي تبين وقت الرحيل، ويمكن ذكر أشعار أخرى من هذا النوع في الصفحات القادمة إن شاء الله تعالى.

### تشبيه الأظعان بالأشجار :

تعد البيئة ذات أثر كبير في مجال الوصف والتشبيه في كل زمان ومكان تبعاً لكل تطور حادث في أي بلد أو مكان. فالمشبه إنما يستقى ما يريد تشبيهه مما حوله مما يرى أو يسمع وذلك لقربه من العين والذهن، فتسهل بذلك الترجمة، ويخلق علاقة بين ما يريد وبين ما يرى أو يسمع. فهذا ما كان بالنسبة لشعر العرب عندما كانوا يربطون بين ما يريدون تشبيهه وبين ما يريدون التشبيه به، ذلك من أسباب الطبيعة. والبدوي يستعين في التشبيه بما حوله من حيوانات الصحراء. أو بالمواشي التي يرعاها، فكثيراً ما شبهوا النساء من حيث الجمال بالمها والغزلان، كما استعملوا التشبيه في أمور أخرى بحمر الوحش وثور الوحش والنعام والضب وغير ذلك من الحيوانات المفترسة كالذئب والضبع والأسد والنمر والطيور الجارحة ثم بصنوف الأشجار.

أما السفن والقوارب فقد رآها بعضهم ممن زار بلاد السواحل، أو قد سمع عنها من خلال مجالسهم، فارتسمت الصورة في ذهنه، وشبه بها وأجاد أكثر ممن شاهدوا، وقد نوّه بالسمع بشار بن برد في قوله "والأذن كالعين توفي القلب ما كانا".

---

٥٩. ديوان الأعشى الكبير، شرح وتعليق د. محمد محمد حسين، نشر المكتب الشرقي للنشر والتوزيع - بيروت سنة ١٩٦٨، ص ٢٣٧.

ولعل تشبيه الأظعان بالأشجار كان له نصيب وافر عند شعراء العرب، وهذا ما يهمننا في هذا المقام، من ذلك قول الأعشى في قصيدته التي هجا بها الحارث بن وعله: (٦٠)

فلما استقلت قلت نخل ابن يامن    اهن ام اللاتي تربت يترب  
طريق وجبار رواء أصوله    عليه أبابيل من الطير تنعب x

فالشاعر علقت بذهنه أشجار النخيل العالية، فنسبها الى (ابن يامن) وهو انما يقصد سفن (ابن يامن) وهو أحد ملاحى هجر المشهورين بالبحرين. وقد شبه الأظعان وما عليها من الهوادج التي بها النساء بشجر النخل العظيم، وهذا من بيئة العرب التي لا تخفى على واحد منهم، بها يعتزون ومنها بعض طعامهم. والشاعر خصّ نوعين من شجر النخيل معروفين عند العرب بالضامة وهما: الجبار والطريق.

أما الشاعر ابو دواد الأيادي (جارية بن الحجاج بن حذاق) فانه يشبه الأظعان بالنخيل، ويعين ويعرف هذا النخيل وهو نخيل بيسان في فلسطين فيقول: (٦١)

نَخَلَات من نخل بَيْسَان    أَيْنَعْنَ جميعاً ونبتهنّ تَوَام

والشاعر (عبيد بن الأبرص) يشبه الأظعان بالنخيل المنظم المتقارب الشديد الخضرة الكبير العالي، ولا يغفل عن ربة الحسن والجمال في هذه القافلة وهي صاحبتة (هند) ذات الجمال والحسن والدلال التي عدّها زينة من الهوادج من النساء، فهي لم تستعمل الوشم في يديها لتزينهما، فحسنها وجمالها أغناها عن ذلك، فهو يقول: (٦٢)

كأن أظعانهم نخل موسقة    سود ذوائبهما بالحمل مكموه  
فيهن (هند) التي هام الفؤاد بها    بيضاء أنسة بالحسن موسومه  
وانها كمهاة الجو ناعمة    تدني النصيف بكف غير موشومه

٦٠ المصدر السابق ص ٢٢٧.

٦١ الأسمعيات ص ١٨٦.

٦٢ ديوان عبيد بن الأبرص، طبعة دار صادر - بيروت ص ١٣٥.

ووصف النساء بالنعومة وصفاء البشرة، كثير عند عبيد بن الأبرص، فتراه  
يقول في قصيدة ثانية: (٦٣)

تبصر خليلي هل ترى من ظعائن سلكن غميرا دونهن غموص  
وفوق الجمال الناعجات كواعب مخاميص أبكار أوانس بيض

كذلك الشاعر عمر بن أبي ربيعة يشبه الجمال وعليها الهودج بالنخيل في  
قوله: (٦٤)

فعالين الحمل على نواج علائف م تلوحها المروج  
كأنهم على البوابة نخل أمر لها بذى صعب خليج  
فما يدري المخبر أي جزع من الأجزاء يمت الحدودج

وللشاعر الأخطل مساهمة في هذا النمط الشعري، حيث يشبه الظعائن بالنخيل  
في عظمها وحسن هيأتها، هذه الظعائن التي حملت الهودج وفيها النساء نوات  
الحسن والجمال كأنهن المها فيقول: (٦٥)

وكان ظعن الحي حائش قرية داني الجناية مونغ الأثمار  
وإذا تكشفت الخدور بدا لنا بقر كوانس في ظلال مغار  
وإذا أطلعن من الخدور لحاجة سدوا الخصاص بأوجه أحرار

وتظهر مغالاة الشاعر في وصفه نور وجوه النساء، هذا النور الذي غلب نور  
الضور الآتي من فتحات الهودج.

وهذا الشاعر (ذو الرمة) يصف أظعان صاحبتة (مي) التي سيطرت على عقله  
وعاطفته أكثر من غيرها، فكانت مصدر وحي والهام له في كثير من أشعاره،

---

٦٣ الديوان ص ٨٨.

٦٤ ديوان عمر بن أبي ربيعة، تحقيق فوزي عطوي - نشر الشركة اللبنانية - بيروت سنة  
١٩٧١، ص ٧١، ٧٢.

\* جاء في المقامة الطيبية رقم (٣٢) من مقامات الحريري (شرح مقامات الحريري، نشر المكتبة  
الشعبية - بيروت ص ٣٥٤. قوله في ذكر الجبار: "قال: فان كان له زهو جبار؟ قال: لا إنكار  
عليه ولا إيكار". والزهو: البسر المتلون والجبار: النخل العالي الذي فات اليد لعلوه، وضده القاعد.  
٦٥ ديوان الأخطل التغلبي، رواية أبي عبد الله اليزيدي، عن أبي سعيد السكري، باعتناء الأب  
انطوان صالحاني، الطبعة الثانية، نشر دار المشرق - بيروت ص ٧٧.

ووصفه لأظعانها إنما كان من شجر بيئته وهو شجر الميس الذي تتمايل أغصانه بفعل هبوب الريح، وتنحني أعاليه، فهو يقول: (٦٦)

نظرت الى أظعان مي كأنها موليّة، ميسٌ تميل ذوائبه

فالأظعان تتمايل بفعل سيرها وهي تتهاوى وكأنها أغصان شجر الميس. وعندما يلتفت الى أظعان صاحبه (خرقاء) فانه يشبه ذلك بشجر الأثل والنخيل في وادي القرى فيقول: (٦٧)

فأضحت بوعساء النميط كأنها ذرى الأثل من وادي القرى ونخيلها

وفي قصيدة ثانية يشبه أظعان صاحبه (مي) بشجر النخل الذي يحمل كثيراً من ثمار النخل ذات الألوان الحمراء والصفراء، وهذا التشبيه إنما ذكره الشاعر (ذو الرمة) لكثرة الزينة التي على الهودج (وسوف أفرد لها حديثاً خاصاً بعد قليل ان شاء الله لكل ما يتعلق بزينة الأظعان عامة والهودج خاصة) ويذكر أن هذه الأظعان كانت تسير في البوادي بعيدة عن القرى أو ساحل البحر، فالنساء في الهودج منعمات البال، هانئات الحال لعدم وجود قناطر أو طرق قروية صعبة أو صخور قريبة من سيف البحر تضطر معها للصعود والنزول واللف والدوران، وقد ذكر أيضاً وقت الرحيل الذي كان في الغبش فهو يقول: (٦٨)

أجدت بأعباش فأضحت كأنها مواقير نخل أو طلوح نواضر  
ظعائن لم يسلكن أكناف قرية بسيف ولم تنغص بهن القناطر

كذلك قوله يصف أظعان (مي) في قصيدة ثانية، وقد شبهها بنخل (يبرين أو بنخيل هجر) اللتين اشتهرتا بعظم نخيلهما، فهو يقول: (٦٩)

كأن أظعان (مي) اذ رفعن لنا بواسق النخل من يبرين أو هجرا

---

٦٦ ديوان ذي الرمة ص ٢٥. (الميس: شجر تعمل منه الرّحال. ذوائبه: أغصانه).

٦٧ الديوان ص ٩٠٩. (الوعساء: الأرض الرملية. النميط: واد بالدهناء).

٦٨ ديوان ذي الرمة ص ١٠١٩. (أكناف: نواح - مواقير: حوامل بالثمر الكثير أعباش: بقايا الليل والظلام).

٦٩ المصدر السابق ص ١١٥٦.

ثم يصف طريق سيرها ومهارة حاديها الذي يجانب بها ركوب كثنان الرمل والحزون، فهو يسير بها في الطريق الصحيح فيقول: (٧٠)

يعارض الزرق حاديها وتعده حتى إذا زاغ عن تلقائها اختصرا  
إذا يعارضه وعث أقام له وجه الظعائن خل يعسف الضفرا

ومثل ذلك أيضاً قوله يخاطب أخاه مسعوداً، وقد شفه الوجد وغالبته عبراته، ويطلب من أخيه مسعود أن يتبصر أظعان صاحبتة، فهو غير قادر على تحقيقها لجولان الدمع في عينيه مما سبب له غبشاً في الرؤيا، فيسعه أخوه مسعود ويخبره أنه قد رآها بالنميط، وقد تحقق من عظمها وعلوها وكأنها نخيل القرى العظيم المتناول في السماء بسعه وحمله، فهو يقول: (٧١)

أقول لمسعودٍ بجرعاء مالك وقد همّ دمعى أن تلجّ أوائله  
ألا هل ترى الأظعان جاوزن مشرفاً من الرمل أو حاذت بهن سلاسله  
فقال: أراها بالنميط كأنها نخيل القرى جبّاره وأطاوله

ولذي الرمة موقف آخر بالنسبة للنظر الى أظعان أحبابه، ففي الأبيات السالفة نراه يخاطب أخاه مسعوداً مستشفعاً ليتبصر ظعن أحبابه، أما في الأبيات التالية فإنه يناشد صاحبيه ليستطلعاً له أخبار صحبه، ويدعو لهما بالمقام العالي من الفردوس ان هما قاما بهذا الطلب وتبصّرا له ظعن أحبابه، فهو يقول: (٧٢)

يا صاحبي انظرا، اواكما درج عال، وظل من الفردوس ممدود  
هل تبصران حمولاً بعدما اشتملت من دونهن حبال الأشيم القود  
عواسف الرمل يستقفي تواليها مستبسر بفراق الحي غريد \*

ويكاد يكرر المعنى بقوله: (٧٣)

تبين خليلي هل ترى من ظعائن بأعراض أنقاض النقا تتعسف  
يجاهدن مجرى من مصيف تصيرت صريمته حوضى فالستيال فمشرف

٧٠. المصدر السابق.

٧١. المصدر السابق ص ١٢٤٥، ص ١٢٤٦.

٧٢. ديوان ذي الرمة ص ١٣٥٥.

\* العواسف: الإبل تسير على غير هدى من شدة سواقي الرمل.

٧٣. ديوان ذي الرمة ص ١٥٦٢، ص ١٥٦٣.

فالجمل وعليها محبوبته صارت تغالب سوافي الرمل، لذا فهو مشفق على صاحبتة من هذا الرمل. ثم نراه يشبه الأظعان بشجر السّال الذي يتراءى للناظر أن السراب يرفعه بين حزوى ورابية الخويّ فهو يقول: (٧٤)

كأن الآل، يرفع بين حزوى ورابية الخويّ بهم سيالا

كذلك قوله وقد شبه الأظعان بالأشجار العالية على ضفاف الأنهار أو بالقرب من الماء وكل ذلك بفعل السراب الذي يغمر الأظعان حيناً، وحيناً يرفعها أو كأنها تغوص في لجة من الماء، فهو يقول: (٧٥)

أفي مرية عيناك اذ أنت واقف بحزوى من الأظعان أم تستبينها  
نظرت الى أظعان (مي) كأنها نواعم عبريّ تميل غصونها

ومثل هذا أيضاً قوله التالي يشبه الأظعان بشجر عال كأنه على ضفاف غدران ماء، وما ذلك إلا فعل السراب بطبيعة الحال: (الديوان ص ٢٢٤)

ألا هل ترى أظعان (مي) كأنها نرى أشأب راش الغصون شكيرها  
توارى وتبدو لي إذا ما تناولت شخوص الضحى وانشق عنها غديرها

ولبيد بن ربيعة يشبه الأظعان بالنخل العظيم، الكثير الحمل، وهذا النخل على ضفاف الماء، مما جعل الشاعر يربط بينه وبين الطعائن التي تراءت له وهي تتراقص بفعل السراب، وكأنها هذا النخل على ضفاف الماء، فهو يقول: (الديوان ص ١٥٢):

فكأن ظعن الحي لما أشرفت في الآل وارتفعت بهن حزوم  
نخل كوارع في خليج محلم حملت فمناها موقر مكموم

ومثله قول الأعشى (الديوان ص ١٤٤) نشر دار الكاتب العربي - بيروت

كأن حدوج المالكية غدوة نواعم يجري الماء رفهاً خلالها

٠٧٤ ديوان ذي الرمة ص ١٥١١.

٠٧٥ المصدر السابق ص ١٧٨٦.

فقد ورد ذكر كلمة (نواعم) وهو الشجر الأخضر الكبير، الذي يروى بالماء باستمرار عند الأعشى وعند ذي الرمة، حيث شَبَّها به أظعان الأحباب.

ثم تضطرب نفسه ويئن ويبكي، ويبكي معه الربا والحزون والوهاد، وذلك عندما يعلم أن (ميتاً) قد تزوجت من عاصم المنقري فيقول في ذلك:

ولما أتاني أن (ميتاً) تزوجت خسيساً، بكى سهل الربا وحزونها

ولميت هذه فصل كبير على استخراج كنوز الشعر من قلب ذي الرمة، هذا الشعر الذي حفل بأصناف التشبيهات للحيوان والنبات وللجماد أحياناً، مما يمكن عده رافداً ثراً في مجال اللغة والأدب العربي. فميت مصدر إلهام وعطاء لذي الرمة الذي أطلق لنفسه العنان في هذا المجال الرحب، فقد أكرمته الطبيعة بما حباها الله من صنوف مخلوقات الله العظيم، كما أكرم الأدب بما مده من أصناف الأشعار ذات الخلال البدوية والصحراوية، فكأنه قد ربط بين أركان الطبيعة وبين اللغة العربية بأمراس لا يحل لها فتل على مرّ الأزمان والأعصر بفضل هذا الشعر الذي تتدارسه الأجيال، ويناله الشرح والتعليق في كل جيل دون أن تهتريء سماته وأصالته مهما بعد عن زمانه، ومهما قطعت الأمم من أشواط المدنية والأزدهار.

ومن شعر ذي الرمة الذي شبه فيه الأظعان بالنخيل ونحوه قوله الذي يستنجد باخلائه وصحبه للتبصر، عليهم يَرَوْنَ ظعن (ميت) فيخبرونه بذلك أين وصلت وأين حلت، وحتى لا يختلط عليه الأمر بين هذه الأظعان الضخمة بما عليها من هودج، تكنّ فيها (ميت) وصويحاتها، وبما على الهودج من زخارف ونحوها، وبين أشجار النخيل العالية، فهو يربط ضخامة الأظعان وتقاربها وبين عظم النخيل فيقول: (٧٦)

خليليّ مدّاً الطرف حتى تبيّنا      أظعنُ بعلياء الصفا أم نخيلها  
فقالا على شك، نرى النخل أو نرى      لمية ظعننا باللوى نستحيلها  
فقلت: أعيدا الطرف ما كان منبتاً      من النخل خيشوم الصفا فأميلها  
ولكنها ظعن لمية فارفعاً      نواحل كالحيات رسلاً دميلها

كذلك قوله الذي يظهر ليه جزعه وحسرتة على رحيل (ميّ) عندما قربوا الاجمال  
لتحميل الهودج عليها إيداناً بالرحيل، ثم يصف تلاعب السراب بهذه الأظعان  
وكانها نخيل عالية تموج في بحور السراب، «فترفعها تارة، وتارة تخفضها، فهو  
يقول: (٧٧)

وأجمال (ميّ) اذ يقرّين بعدما وخطن بذبتان المصيف الأزارق  
كأن فؤادي قلب جاني مخافة على النفس إذ يُكسّين وشي النمارق  
وإذ من اكتاد بحوضي كأنما زها الال عيدان النخيل البواسق  
طوالع من صلب القرينة بعدما جرى الال أشباه الملاء اليقايق

فالسراب المتراقص بلونه الأبيض كالملاء البيضاء، قد رفع النخيل لتراقصه  
فيه هذا النخيل الذي شبه الشاعر به أظعان صاحبتة (ميّ).

وفي قصيدة ثانية يكاد يكرر المعنى، غير أنه في الأبيات التالية يشبه الأظعان  
الضخمة بالنخل العالي وبشجر السيتال في قوله: (٧٨)

والبين قطع قوى الوصال وقربوا قياسر الجمال  
من كل أجأي مخلف جلال ضخم التليل نابع القذال  
مثل صداي النخل والسيتال ضمن كل طفلة مسكال

فهذه الجمال الضخمة بما عليها من هودج ضخمة أيضاً، قد اعتلتها وجلست في  
الهودج (ميّ) وصاحباتها ذوات الجمال والدل والنعومة.

ويصف جمال (ميّ) التي فتنته وكانت مصدر وحي إلهامه الشعري في مجالات  
الوصف والتشبيه، هذا الجمال الذي لو صادفه (لقمان الحكيم) لدهش منه وفتح  
عينيه وفغر فاه لانبهاره بهذا الجمال الفتان، فهو يلتمس لنفسه العذر فيما  
يقوله عن (ميّ) وبما يشبها به: (٧٩)

ولو أن لقمان الحكيم تعرضت لعينيه (ميّ) سافراً كاد يبرق

---

٧٧. الديوان ص ٢٤٨.

٧٨. المصدر السابق ص ٢٧٢.

٧٩. ديوان ذي الرمة ص ٤٦١.